

الإنسان المسيحي ميزته أنه يتجوهر، يتألق فيما ينزج في الكور...



الأرشمندريت المتوحد بندلايمون



يَلِدُ النَّاسُ أَوْلَادًا لَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّ عِنْدَهُمْ رِسَالَةٌ: أَنْ يَجْعَلُوا الْأَوْلَادَ مَتَعَلِّقِينَ بِاللَّهِ، مَرْتَبِطِينَ بِمَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. لَكِنَّهُمْ يَتَلَذَّذُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَوْلَادٌ. كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقْلُدُونَ بَعْضَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَعْنَى وَالنَّكْهَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِعَمَلِهِمْ، وَلِهَذَا هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنْ حَالَاتِ الزَّوْجِ الْفَاشِلَةِ. رُبَّمَا تَكُونُ نَاجِحَةً، فَهَمَّا يَنْسَجِمَانِ فِي الْجَسَدِ وَالْعَقْلِ مَعًا، وَلَكِنَّهُمَا لَا يَتَوَجَّهَانِ إِلَى الْمَسِيحِ، يَظَلَّانِ هُنَا فِي احْتِيَاجَاتِ هَذِهِ الْأَرْضِ. أَمَّا أَنْ يَكُونَا مَرْتَفِعِينَ مَعَ أَوْلَادِهِمَا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، مَتَشَوِّقِينَ إِلَيْهِ، فَهَذَا أَمْرٌ ضَعِيفٌ وَضئِيلٌ، ذَلِكَ أَنَّنَا كَثِيرًا مَا نُهْمِلُ التَّرْبِيَةَ، وَأَقْصَدُ نَفْسِي أَوَّلًا، فَنَحْنُ نَعْمَدُ الْأَوْلَادَ وَنَتْرَكُهُمْ. إِنْ كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُصِيبُوا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالخُبْرَةِ الرُّوحِيَّةِ فَهَذَا بِنِعْمَةٍ مِنَ الرَّبِّ. لَا أَحَدًا، لَا الْكَنِيسَةَ، لَا الْإِكْلِيروسَ وَلَا الشَّعْبَ يَعْلَمُ أَبْنَاءَهُ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى وَقْتٍ، فِيهِ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْتَارُوا زَوْجَةً تَلِيقٌ بِحَيَاتِهِمُ الْمَسِيحِيَّةِ. فَتَرَاهُ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَنِيسَةِ مُدَاوِمًا وَمُواظِبًا، يَجْهَلُ. وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْتَارُ امْرَأَةً شَقِيَّةً كَمَا نَقُولُ فِي الْعَامِيَّةِ «مَشْطُطَةٌ». وَيَأْتِي ابْنُ الْكَنِيسَةِ هَذَا فَيَأْخُذُ امْرَأَةً بِلَا عَقْلِ لِأَنَّهَا فَحْشَاءٌ جَمِيلَةٌ تُسْرَهُ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَفْكِيرٌ أَنَّهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ، هُوَ يَسْعَى لِكَيْ يَتَقَدَّسَ وَيَصِلَ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.

لذلك قال الرسول: إنَّ هاجر هي أشبه بجبل سيناء. هناك أخذنا الوصايا التي تنهينا: لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد بالزور، هي لآت كثيرة ينهينا فيها الربُّ حتى يؤدِّبنا ولكنها تعني العبوديَّة:

أنت تحت السيطرة التي يفرضها الناموس حتى تنضبط أهواؤك وكل تحركاتك، وتصبح بعد ذلك حُرًّا عندما نستعبدُ نفسك للمسيح. أمّا أورشليمُ السماوية التي تنزل من السماوات فهي رمزٌ للملكوت، وهذا هو المسعى الذي ينبغي أن نصل إليه. هي حرّة، هي سيّدة، لا قيّد عليها، ولذلك يناسبنا أن ننظر إليها ونتعلّم منها كيف أنّها هي تنزل إلينا من المسيح، تنحدر من فوق من الرأس حتى تشكّل الجسد كله. ونحن ما علينا إلا أن ننضوي فيها في مساعينا وطاقاتنا حتى نتقدّس كلها وتُصبح مُلك المسيح، وعند ذاك نتحرّر لأننا نلتصق بالذي هو حرٌّ من الموت ولا يتسلط عليه الموت من بعد.

يوحنا المعمدان صار نموذجًا لكلّ الأولاد الذين لا يأتون فقط من إرادة الجسد والدم، بل يأتون لأنّ النعمة تُزلهم إلينا. وكذلك، كلّ إنسانٍ منّا لا يفتكر أنّه ببطاقته البشرية، والتي أعطاه إياها الربُّ طبعًا، أنّه يستطيع أن يصل إلى المبتغى حتى ولو جلب أولادًا كثيرين، فليس هذا هو الهَمُّ، الحشرات أيضًا تتكاثر. ليست هذه ميزة الإنسان، الإنسان المسيحيّ ميزته أنّه يتجوهر، يتألّق فيما ينزج في الكور، في الخضمّ، في التعب، في الجهادات، يتألّق ويصعدُ وينتصر بنعمة الربِّ. وعند ذاك يُصبح قديسًا، يحقّق ملكوت الله منذ بداية حياته على الأرض هنا، إذّاك يكون ابن الموعود وليس بعد ابنًا للجسد.

فالناس على الأرض كثيرًا ما يعتدّون بأنسابهم، بانتسابهم لعائلات، لأوطان، لمراكز. لكنّها ليست نافعة. هذه تزول. هذه تزول. إذا ما تعدّى شعبٌ على شعبٍ آخر يُفقدُه كلّ امتيازاته وكلّ حرّيته، ولا يعود له مجدٌ بل يُصبح مُستعبدًا. أمّا الذي يتحرّر من ربة الشرِّ فإنّه حرٌّ حقيقيّ حتى ولو سُجن، هو حرٌّ لأنّ لا سلطة للأهواء عليه.

يوحنا المعمدان هو هذا الكائن الذي يعلمنا أنّ الطاعة للكلمة الإلهية هي الفعل. بطرس قال: تعبنا طوال الليل يا معلّم ولم نُصب سمكًا، ولكن كرامةً لقولك أُلقي الشبكة. فعندما تمّت طاعته، نتيجة كلمة الله، حصل على سمكٍ كثير، بل إنّه اندهل جدًّا هو وكلُّ رفقاته كيف أنّ البحر وهو خالٍ من السمك، يُصبح مملوءًا لدرجة أنّ السفينتين كادتا تغرقان.

هذه هي المشكلة الأساسية: أنّ الإنسان ينظر إلى طاقاته فيجدها عظيمةً، وينسى أنّها من الله. وبعد ذلك ربّما يظنّ أنّه في كلّ ما يعمل، هو وحده، وينسى أنّ الله معه يراقبه في كلّ أعماله، في

جهاداته، في اجتهاده وفي خدمته، وفي كلِّ ما يُنتج. لكنَّه إذا ما عرف هذه الحقيقة أنَّه يعمل لأنَّه يُطيع الله، فعندَ ذاك تتوهَّج هذه العطايا التي له ويتألَّق ويتقدَّس ويُصبح قادرًا أن يُتمَّ مشيئةَ الله ويتمَّ مشيئته هو أيضًا، لأنَّ الصيَّاد يفرح عندما يُصبح بين يديه سمك، وكذلك الزارع والصانع وكلُّ إنسان، عندما يرى طاقاته تتحقَّق يفرح. ولكنَّه يفرحُ بالأكثر إن كانت تتحقَّق ليس فقط بإرادته بل نتيجةَ إرادةِ الرَّبِّ. فلنجعلِ انسجامًا بين طاقاتنا وميزاتنا وإرادةِ الرَّبِّ في تربيةِ أولادنا على الصلاح، فتحصلُ البركةُ ونصبحُ شعبًا لله مقدَّسًا.

مختارات من عظات الأرشمندريت المتوحد بندلايمون



دير رقاد والدة الإله - حمطوره

© ٢٠١١